اللِّصّ الصَّغير

تأليف: محمد سوداني
رسم: غسّان نصّار

يُحْكى أَنَّ صَبِيًّا شَقِيًّا كانَ يَعيشُ مَعَ جَدَّتِهِ بَعْدَ وَفاةِ أَبَوَيْه. تَسَلَّلَ ذاتَ يَوْمٍ إلى بَيْتِ الجيرانِ في قَرْيَتِهِ الهادِئَة، وسَرَقَ بَيْضَةً مِنْ قِنِّ الدَّجاج، ثُمَّ عادَ مُسْرِعًا إلى بَيْتِه.

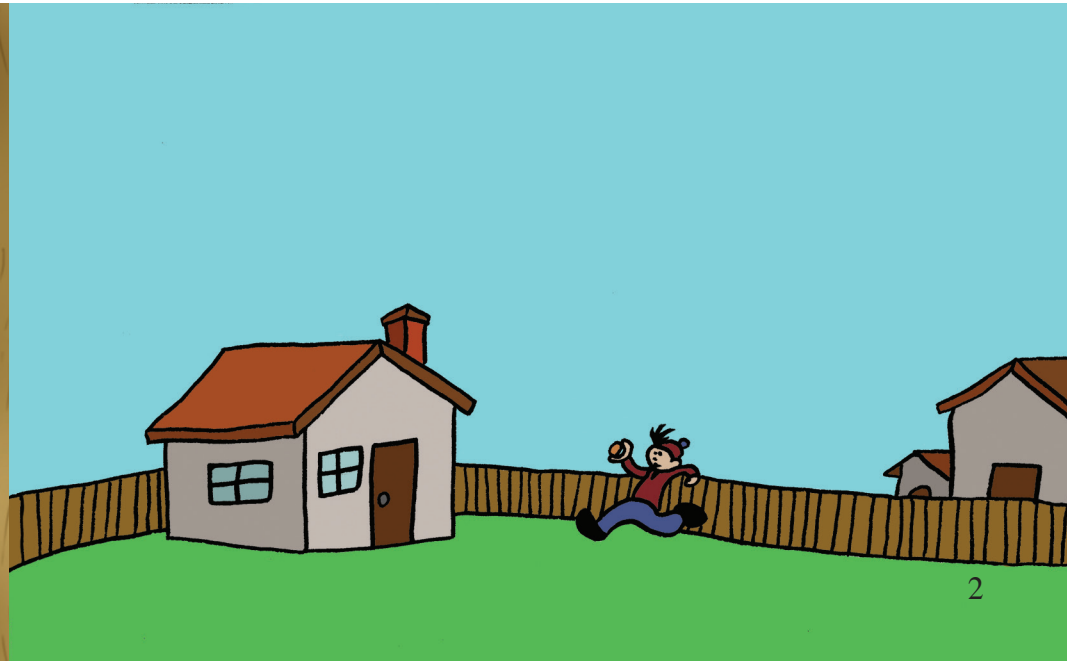

تَرَدَّدَ الوَلَدُ قَليلًا، ثُمَّ أَخْبَرَ جَدَّتَهُ بِالأَمْر، فَابْتَسَمَتْ وهَنَّأَتْهُ عَلى إقْدامِهِ وجُرْأَتِه، وقَبَّلَتْهُ بِكُلِّ فَخْرٍ واعْتِزازٍ قائِلَةً: «مِنَ اليَوْمِ أَصْبَحْتَ سَيِّدَ البَيْتِ ورَجُلًا يُعْتَمَدُ عَلَيْه».

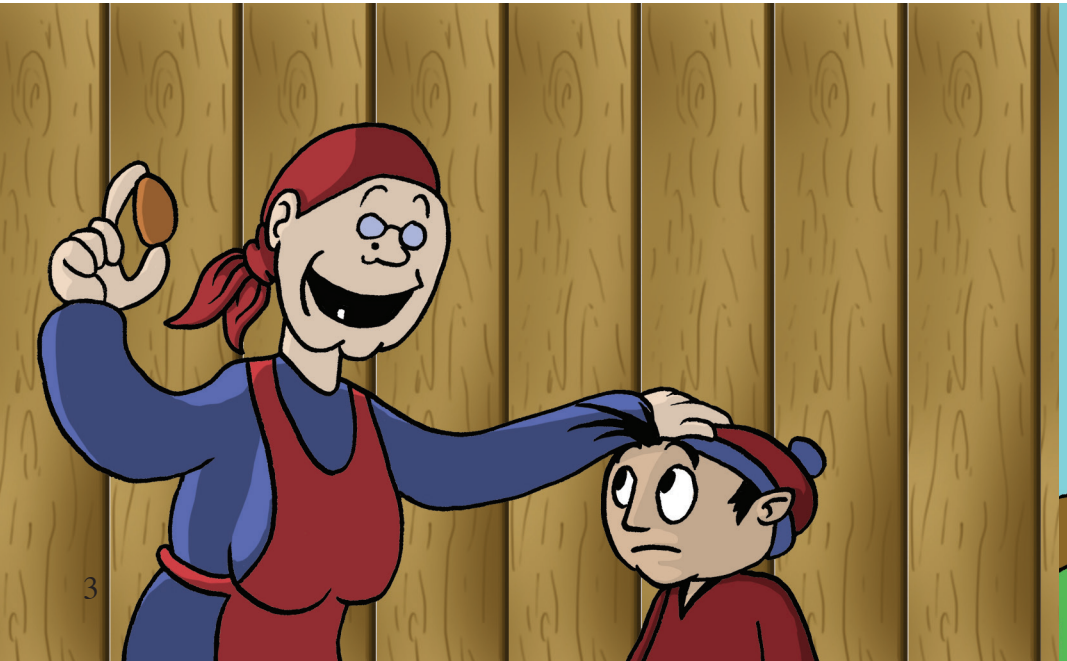

شَعَرَ الوَلَدُ بِالسَّعادَةِ والسُّرور، فَغادَرَ المَنْزِلَ بِسُرْعَةٍ، ثُمَّ عادَ حامِلًا دَجاجَةَ أَحَدِ الجيرانِ في أَحْضانِه، كاتِمًا صَوْتَها، وأَلْقى بِها أَمامَ جَدَّتِه. لَمْ تُصَدِّقِ العَجوزُ عَيْنَيْها، وكادَتْ تُزَغْرِدُ مِنْ شِدَّةِ الفَرَح. وبَعْدَ فَتْرَةٍ قَصيرَةٍ، أَصْبَحَتِ الدَّجاجَةُ المِسْكينَةُ وَجْبَةً شَهِيَّةً لِامْرَأَةٍ شِرّيرَةٍ وطِفْلٍ مُغَفَّلٍ.

وفي لَيْلَةٍ حالِكَةٍ، وكَأَنَّ الفَجْرَ يَخافُها، أَخْفَتِ الجَدَّةُ

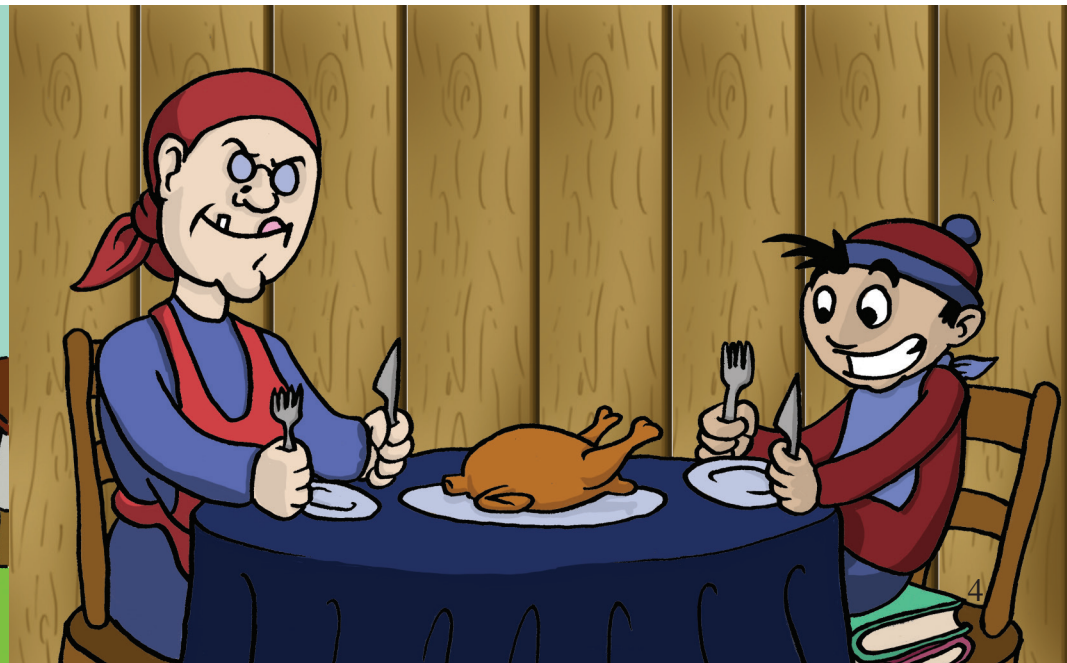

وحَفيدُها آثارَ الدِّماءِ والرِّيشِ والعِظام. ثُمَّ ناما وهُما يَحْلُمانِ بِمُسْتَقْبَلٍ جَميلٍ.

بَعْدَ أَيّامٍ قَليلَةٍ، تَسَلَّلَ الصَّبِيُّ في لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ إلى مَزْرَعَةِ الفَلّاحِ «عَلي مَلِك»، وسَرَقَ خَروفًا صَغيرًا قادَهُ بِعِنايَةٍ إلى جَدَّتِهِ الَّتي كانَتْ تَنامُ نَوْمًا عَميقًا. انْتَبَهَ الصَّبِيُّ جَيِّدًا كَيْ لا تُصْدِرَ الضَّحِيَّةُ صَوْتًا يَكْشِفُه. قَبَّلَتِ المَرْأَةُ حَفيدَها وهَنَّأَتْهُ عَلى شَجاعَتِه، ثُمَّ وَضَعَتِ الخَروفَ وَسْطَ خِرافِها القَليلَة.

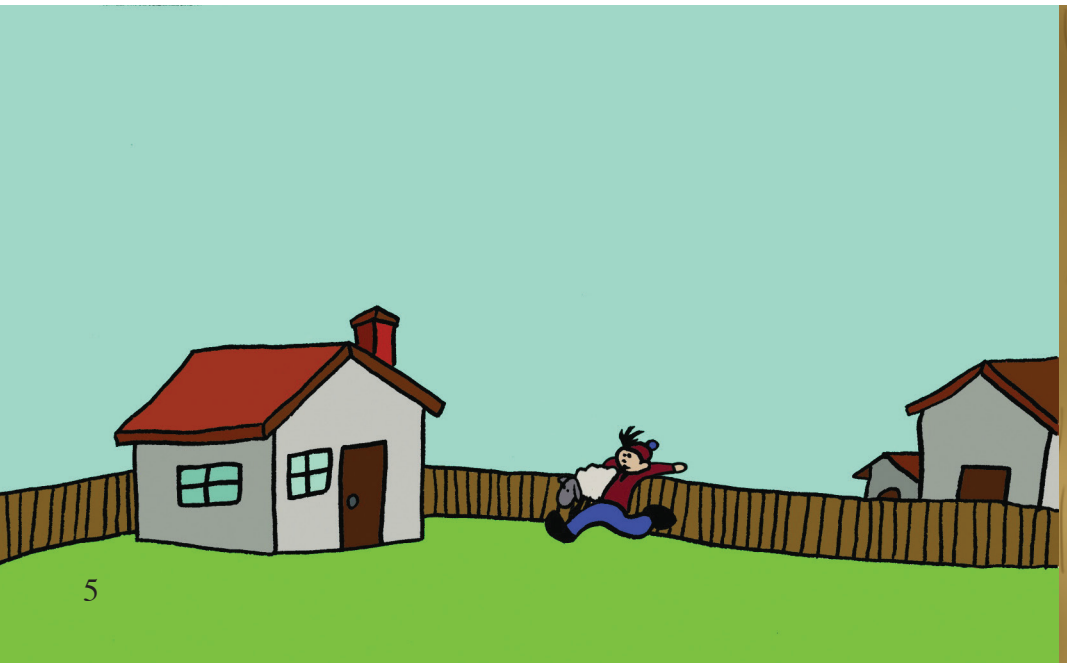

في الصَّباحِ الباكِر، أَخَذَتِ العَجوزُ الخَروفَ عَبْرَ الطُّرُقاتِ الجَبَلِيَّةِ الوَعِرَةِ إلى أَحَدِ التُّجّارِ المَعْروفين، تَتَحَجَّجُ بِمَرَضِ حَفيدِها الوَحيدِ وحاجَتِها الضَّرورِيَّةِ إلى المال.

لَمْ يَشُكَّ الرَّجُلُ بِها، وسَلَّمَها ثَمَنًا مُرْضِيًا، فَعادَتْ إلى بَيْتِها بِسُرْعَةٍ عَلى حِمارِها وهِيَ سَعيدَةٌ جِدًّا.

أَتى الشِّتاءُ بِبَرْدِهِ الشَّديد، فَتَوَقَّفَ الصَّبِيُّ عَنِ السَّرِقَةِ بِسَبَبِ البَرْدِ والصَّقيع.

ومَعَ بِدايَةِ الرَّبيع، عادَ الوَلَدُ إلى جَدَّتِهِ يَحْمِلُ سَجّادَةً جَميلَةً فَلَمْ تَنْظُرْ إلَيْهِ لِأَنَّها كانَتْ غاضِبَةً. لَمْ يَنَمِ الطِّفْلُ لَيْلَتَهُ وراحَ يَتَقَلَّبُ في فِراشِه. وفَجْرًا، عادَ يَقودُ فَرَسًا جَميلَةً جِدًّا.

عِنْدَئِذٍ، عانَقَتِ الجَدَّةُ حَفيدَها بِحَرارَةٍ وباعَتْ كَعادَتِها المَسْروقَ الجَديدَ في سِرِّيَّةٍ تامَّةٍ.

وهَكَذا، تَعَلَّمَ الصَّبِيُّ السَّرِقَةَ وذَلِكَ بِتَشْجيعٍ دائِمٍ مِنْ جَدَّتِه، وبِتَأْييدٍ كامِلٍ مِنْها. وتَوَسَّعَتْ نَشاطاتُهُ وتَنَوَّعَتْ مَسْروقاتُه.

لَمْ يَقْدِرِ الفَلّاحونَ عَلى تَحَمُّلِ سَرِقَةِ أَبْقارِهِمْ وأَغْنامِهِمْ وخُيولِهِمْ وحَتّى مَحاصيلِهِمِ الزِّراعِيَّة، فَشَكَّلوا مَجْموعَةً مِنَ الشَّبابِ والكُهولِ والأَطْفالِ يَتَوَلّونَ الحِراسَةَ لَيْلًا، ويَتَخَفّونَ في زَوايا الحاراتِ عَسى أَنْ يوقِعوا بِاللِّصِّ الَّذي حَوَّلَ حَياةَ سُكّانِ القَرْيَةِ إلى جَحيمٍ لا يُطاق.

عاشَتِ القَرْيَةُ في أَمانٍ أَيّامًا عَديدَةً. وسَئِمَتِ العَجوزُ الحِصارَ عَلى حَفيدِها، فَأَمَرَتْهُ أَنْ يَنْضَمَّ إلى جُموعِ الحُرّاسِ وأَنْ يُبْدي حَماسَةً كَبيرَةً في حِمايَةِ الأَهالي إلى حينِ مَعْرِفَةِ اللِّصّ.

وبَعْدَ لَيالٍ طَويلَةٍ مِنَ السَّهَرِ الشّاقّ، نالَ الشّابُّ الصَّغيرُ ثِقَةَ الجَميعِ وأَصْبَحَ مَثَلًا في الإخْلاصِ والتَّفاني وخِدْمَةِ الغَيْر.

وذاتَ لَيْلَةٍ، اسْتَغَلَّ الصَّبِيُّ انْشِغالَ الجَماعَةِ بِمُراقَبَةِ الجِهَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنَ القَرْيَة، وتَسَلَّلَ إلى الجِهَةِ الغَرْبِيَّة، وسَرَقَ حَمَلًا سَمينًا ذا قَرْنَيْن.

في الصَّباح، سَمِعَ الجَميعُ الخَبَرَ وتَشاوَرَ رِجالُ القَرْيَةِ بِما جَرى، وقَرَّروا تَكْثيفَ الحِراسَةِ اللَّيْلِيَّة.

وذاتَ لَيْلَةٍ حالِكَةٍ، تَظاهَرَ الشّابُّ الصَّغيرُ بِالمَرَض، فَسُمِحَ لَهُ بِالعَوْدَةِ إلى بَيْتِهِ في أَطْرافِ القَرْيَة.

مَشى أَحَدُ الحُرّاسِ وَراءَهُ مِنْ بَعيدٍ وهُوَ يَقول: «قَريبًا سَأَكْشِفُكَ أَيُّها السّارِق».

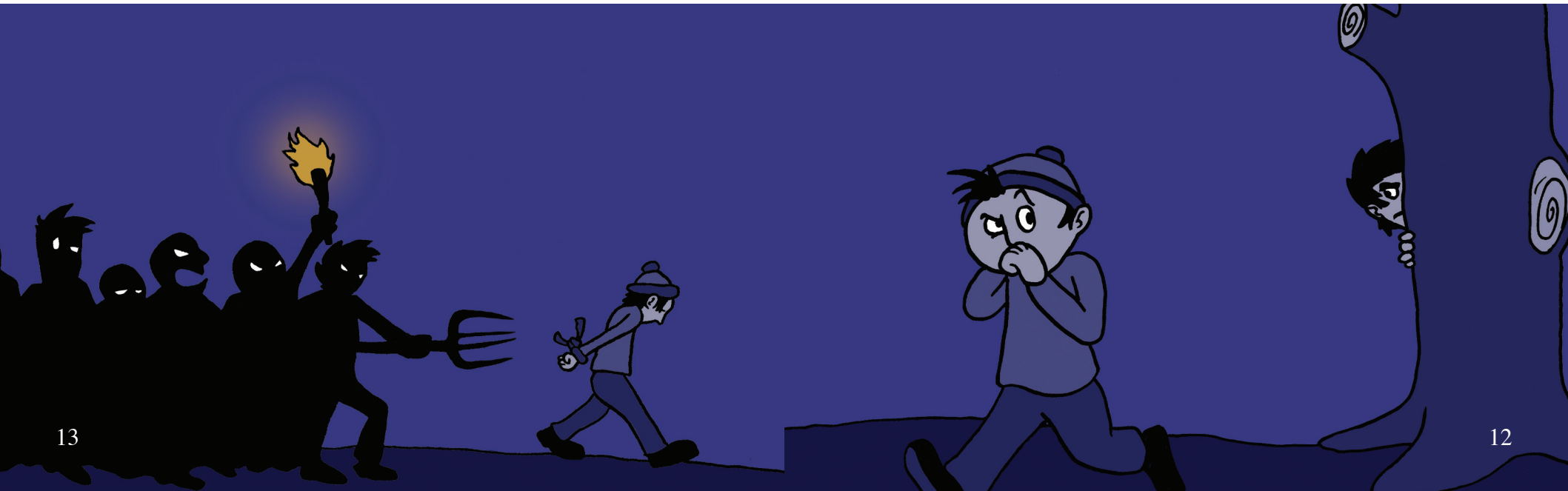

مَشى الصَّبِيُّ مُطْمَئِنَّ البال، ثُمَّ دَخَلَ إلى حَظيرَةٍ وسَرَقَ خَروفًا يُعْجَبُ بِهِ مَنْ يَراه. وقادَهُ بِأَمانٍ وَسْطَ الأَحْياءِ المُظْلِمَة. وفَجْأَةً، وَجَدَ نَفْسَهُ مُحاصَرًا بِجَمْعٍ مِنَ الحُرّاسِ الأَقْوِياء، فَقَيَّدوهُ جَيِّدًا.

في الصَّباح، أَخَذوهُ إلى مَجْلِسِ حُكَماءِ القَرْيَةِ كَيْ يُقَرِّروا عِقابَه.

اعْتَرَفَ الوَلَدُ بِكُلِّ السَّرِقاتِ الَّتي ارْتَكَبَها، وطَلَبَ الصَّفْحَ والسَّماحَ مِنَ الجَميع. وقَبْلَ الحُكْمِ عَلَيْه، طَلَبَ الصَّبِيُّ رُؤْيَةَ جَدَّتِهِ لِوَداعِها، فَأُحْضِرَتْ في الحالِ ودَخَلَتِ المَجْلسَ مُتَعَثِّرَةً باكِيَةً.

خاطَبَها الحَفيد: «أَنا أَخْطَأْتُ كَثيرًا يا جَدَّتي، ولا بُدَّ أَنْ أَنالَ عِقابي».

وقالَ رَئيسُ المَجْلِس: «لَقَدْ رَبَّيْتِ هَذا اليَتيمَ تَرْبِيَةً سَيِّئَةً، وجَعَلْتِهِ سارِقًا بِسَبَبِ طَمَعِكِ وأَنانِيَّتِك».

بَكَتِ العَجوزُ الشِّرّيرَةُ بُكاءً شَديدًا، ورَجَتْ أَعْضاءَ المَجْلِسِ أَنْ يُطْلِقوا سَراحَها وسَراحَ وَحيدِها، وتَعَهَّدَتْ بِحُسْنِ رِعايَتِهِ وتَرْبِيَتِه.

فَهَلْ يُسامِحونَهُما؟